دار البطيخ بدمشق

ورسوم الفواكه والبقول فيها وفي دار الطعم

وصفنا دار البطيخ سنة ١٩٢٩[١] ونبهنا على مكانها بين اسواق الحضارة ولا بأس ان نعيد الكرة عليها ونضيف الى هذا الوصف ما وقفنا عليه بعد من من الفوائد والنوادر. وقد اخفق جهدنا في البحث عن الزمن الذي دخلت فيه هذه التسمية في اللغة ولا نشك انها كانت اموية قبل ان تصبح عباسية وتعم سائر البلاد والامصار. ولعلها اول ما بدأت بدمشق لكثرة ما كان يزرع في ضواحيها وبرّها من اصناف البطيخ وشدّة اقبال الناس على التبرّد به في فصل الحرّ ومن دمشق انتقلت الى مدن الشام كحلب مثلاً وقد نبّه البشاري المقدسي في كتابه احسن التقاسيم على ان حلب لها سبعة ابواب احدها باب دار البطيخ (١٥٥) ولما بنى الخليفة جعفر المنصور بغداد اقام فيها دار البطيخ بين اسواق المدينة في درب الاساكفة ودرب الزيت ودرب الساج ثم حُوّلت في ايام المهدي الى الكرخ[٢]. واشتهرت دورها ايضاً في البصرة والكوفة وسُرَّ من رأى وتخطت العراق الى بلاد فارس وخراسان ونشأت في كل مكان حتى شاهد البشاري في الريّ داراً للبطيخ عند الجامع (٣٩١).

وندر ان تنسب هذه السوق الى غير البطيخ من الفواكه نظير دار التفاح بمصر « وهي فندق كان تجاه باب زويلة ترد اليه الفواكه على اختلاف اصنافها وبها حوانيت ما بينها مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس »[٣].

وغلب على العامة لفظ « دار بطيخ » باسقاط لام التعريف على سبيل التركيب المزجي. قال الثوري في كلامه على الاهواز: « نهر البط نهر كانت عنده مراعٍ للبط فقالت العامة « نهر بط » كما قالوا دار بطيخ »[٤]. وقد جمع

---

١) المشرق ١٩٢٩ / ١٠ ص ٧٦١-٧٦٤

٢) معجم البلدان لياقوت ٢: ٥١٧

٣) الخطط للمقريزي، طبعة البيل ١: ٢٥٣

٤) فتوح البلدان للبلاذري، طبعة ليدن ٢٨٤

ابن لنكك بين اللفظين المركب المزجي الغير المتصرف للعلمية والمضاف حيث قال يهجو ابا الهيذام كلاب بن حمزة :

انت ابن كل البرايا لكن اقتصروا على اسم حمزة وصفاً غير تشبيخ
كدارَ بطيخَ تحوي كل فاكهة وما اسمها الدهرَ الا دارُ بطيخ[1]

وممن استعمل مرة المركب المزجي ياقوت في معجم البلدان في كلامه على قنطرة « دار بطيخ » بدمشق (٢ : ٥٨٩).

ومع اختصاص هذه الدار باسم البطيخ كانت تشمل ايضاً كل الفواكه بالاجمال. ولما مدح ابن الرومي ابا الصقر اسماعيل بن بلبل وزير المعتضد بقصيدة نونية طويلة اولها :

أجنتْ لك الوصل اغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان
غصون بانٍ عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان

سمى الناس هذه القصيدة « دار البطيخ » لكثرة ما فيها من ذكر الفواكه. قال ابن الطقطقي : وكان الموضع الذي تباع فيه الفواكه يسمى دار البطيخ[2].

وفي كتاب الامثال للثعالبي ان « دار البطيخ تباع فيها جميع الفواكه والرياحين وتنسب الى البطيخ وحده »[3]. واغفل ذكر البقول فيها في جملة الكثيرين الذين لم يشيروا الى شيء منها واوحد من نصّ على بيع الخضراوات فيها شمس الدين محمد بن ابرهيم الجزري في كتابه « تاريخ حوادث الزمان وانبائه » وعدّ منها الخيار والقثاء والقرع واللوبيا والثوم والبصل والخشخاش والحمص الاخضر وغير ذلك والقنبيط والقلقاس وذكر الفول الاخضر في جملة بواكير الفواكه التي تدخل الدار اولاً . ويظهر ان بيع هذه البقول كان في « ارض » الدار كما قال : « فكانت من ثم دار البطيخ سوقاً عامة للاثمار والازهار والخضراوات كالسوق المعروفة اليوم باسم هالّ (halles) وكان في ما بعدها دار اخرى للبقول خاصة كما يؤخذ من قول الصفدي « ابطل الملك العادل نور الدين المكوس والمغارم كدار البطيخ ودار البقل . . . »[4] وسمى ابن القلانسي هذه

١) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ٢ : ١٢٢
٢) الفخري ٢٢٩
٣) كتاب الامثال ، خزانة الجامعة الاميركية ببيروت ، رقم MS 398.9 T. 35 ص ٣٩٩–٤٠٠
٤) دار الكتب المصرية رقم ٩٩٥ ، المجلد الثالث ٤٦٦

الدار «عرصة البقل» في كلامه ايضا على ابطال هذه المكوس سنة٥٥٣/١١٥٨[1].

وكان لبيع الفواكه والبقول مراكز اخرى تباع فيها الفواكه والبقول طول النهار «بخلاف دار البطيخ فانها من بكرة الى الثانية وتنفض» وعدّ الجزري هذه المراكز في المدينة وهي: «مركز الصالحية. والعقيبة. وحكر السماق. وزاوية الشيخ ثابت. وميدان الحصا. وباب الصغير اول الشاغور. والباب شرقي. وباب توما. وعند المدرسة الزنجبيلية. ومسجد القصب وغيره»[2].

واكثر ما كانت البيوع في الدار بالمناداة عليها كاليوم في كثير من المدن الشامية. وفي هذه الدار اكتسب الوأواء الشاعر الدمشقي اول شهرته قال الثعالبي «من اعجب شأنه ما اخبرني به ابو بكر الخوارزمي قال: كان الوأواء منادياً في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه»[3] ومن بواعث الاسف ان تكون فاتتنا لذة معرفة الفاظ هذه المناداة العامية وما كان يُرتجل فيها ويظهر انها كانت لا تخلو من بعض التحرش بالحرفاء والتعريض بالاحزاب الدينية والسياسية المتعادية وهو ما يستفاد من قول ابن المبارك «من اراد الشهادة (اي الموت شهيداً) فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل: رحم الله عثمان بن عفان»[4] ونظيره قول ابي عمر الهذلي «قلت لرجل من اهل الكوفة: خير موضع بالكوفة اين هو؟ قال: مسجد الجامع. قلت: وسوء موضع عندنا دار البطيخ. فلو قال رجل في خير موضع عندكم «رحم الله عثمان» قُتل. ولو قال في سوء موضع عندنا «رحم الله معاوية» قُتل. فشر موضع عندنا خير من خير موضع عندكم»[5].

وللنادين في كل عصر ومصر خوارق وفواحش في الصياح والجلبة تصمّ الاذان وتثقل على الطباع ولذلك قال سعيد بن المسيّب يعني بغداد «ان الله اذا ابغض عبداً جعل رزقه في الصياح... اما سمعت الى اهل دار البطيخ والملّاحين ودويّهم»[6].

---

١) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٢-٣٥٣

٢) تاريخ الجزري رقم ٩٩٥، المجلد الثالث ٤٦٦

٣) يتيمة الدهر، طبعة دمشق ١: ٢٠٥ ٤) تاريخ بغداد للخطيب ١: ٤٧

٥) تاريخ بغداد ١: ٤٧ ٦) عيون الاخبار لابن قتيبة ١: ٣٥٢

وكان للسلطان في دار البطيخ حقوق ومكوس على كل مبيع فيها . وقد فاتنا علم شيء مما كانت عليه في الخلافتين الاموية والعباسية فلا ندري هل كانت جائرة كاكثر الضرائب السلطانية . وكان استيفاؤها يقتضي طبعاً تعيين ديوان خاص بها لم يرد له ذكر في ما وقفنا عليه الا في ما رواه الجزري في حوادث سنة ٦٩٧/٩٨–١٢٩٧ قال بلهجته العامية « فيها انتقم الامير سيف الدين جاغان من نائبه نائب الشد بدمشق جمال الدين الجرتاني والعلم ابن العسال مستوفي دمشق ومن ديوان دار البطيخ وانتقم منهم غاية الانتقام واخذ جميع ما يملكوه »[1] ومن كتبة هذا الديوان « الاديب الامشاطي احمد بن عثمان قيم الشام في نظم الزجل . . . كان كاتباً في دار البطيخ وتوفي سنة ٧٢٥[2] (١٣٢٥ م)

واختصت وظيفة استيفاء رسوم الدار في آخر عهدها بارباب السيوف « يولّى بها اجناد بتواقيع من النائب بدمشق وتسمى هذه الوظيفة « شدّ دار البطيخ والفاكهة » وهي معدودة في جملة الشدود الصغار »[3] ولم نوفق للعثور على صورة هذا التوقيع في جملة ما نقله العمري والقلقشندي والصفدي من صور الولايات السلطانية ومناشيرها في دولة المماليك

ومن الشقاء انه لم يتفق لاحد من المؤرخين والكتاب تفصيل مقادير الضرائب الموضوعة على الفواكه والبقول بدمشق في احدى الدول التي تعاقبت على المدينة لقلة احتفالهم دائماً بمثل هذه الشروح والتفاسير التي لم يكونوا

---

١) تاريخ الجزري ، باريس ٦٧٣٩ ص٢٤١ ٢) شذرات الذهب لابن العماد ٦:١٦

٣) صبح الاعشى للقلقشندي ٦:١٨٨ ، ويراد بالشد في لغة الدواوين قديماً المشارفة والمراقبة اي ما يقرب من معنى « تفتيش » اليوم ولم ينقل في معجمات اللغة بهذا المعنى . وهو عندهم دون « النظر » اي النظارة ومن بديع تورية ابن الوردي قوله في مليح نصراني :

قال زنار خصره كم كذا ترجع البصر قلت لا تنفرد به لك شد ولي نظر

(روض الآداب للحجازي ، خزانة المدرسة الاحمدية بحلب رقم ١١٧٠)

ويظهر انه وضع في الاصل لتقوية الضعيف من اعمال الديوان اخذاً من قولهم : شدّ منه اي عضده وقواه . وجاء بهذا المعنى في لغة القرن الثالث للهجرة وهو قول الوزير ابي الحسن علي بن الفرات : ناحية كذا . . . عاملها ضعيف ينبغي ان يشد بشارك او مشارف (تاريخ الوزراء للصابئ ص ٩) ويقال للعامل فيه الشادّ وربما قيل المُشِدّ مع انه لم ينقل اشد بمعنى شد . ولكن روى الزمخشري في الاساس : رجل شديد مشِدّ (١:٤٨٣)

يقيسون لها وزناً ولا يعرفون لها ضرورة . ويغلب على الظن ان فتنها بدأت تزداد منذ استيلاء الاتراك والاكراد على دمشق لتفاقم نفقاتهم وافتقارهم الى الاموال حتى لم يتحرجوا من استخراجها من ضمان الفجور والخمور والقيان[1]

وكان من جملة هذا الضمان ايضاً ضرائب دار البطيخ وقد حفظ لنا شمس الدين الجزري اسم احد ضمّان الدار سنة ١٣٣٥/٧٣٦ وهو ابو بكر بن همام الدين وله نائب يدعى زين الدين شقيق له اجتمع به مؤلف تاريخ حوادث الدهر وابنائه وعنّ له لحسن الحظ ان يسأله عن ضمان الدار مدفوعاً برغبته استطلاع كل ما يتعلق باخبار وطنه دمشق ولذلك انفرد في كتابه بذكر فوائد وحوادث لا نلقاها في روايات غيره من المؤلفين وهي مزية تدعو الى التفتيش عن تاريخه وطبعه . وهذا نص ما رواه بحرفه قال :

فسألته عن ضمان دار البطيخ فذكر ان سنتهم في الضمان من اول نزول الشمس الى برج الحمل والى آخرها سنة شمسية مبلغ مايتي الف درهم وسبعة وثمانين الف درهم. فقلت له اريد ان تكشف لي الضريبة وتفصل كل صنف بعينه لانه مشارف الدار ونائب اخوه في الديوان

وكان ينتظر بعد هذا السؤال ان يرد الجواب بتفصيل الفواكه المحمولة الى الدار صنفاً صنفاً مع مكس كل منها بمفرده ولكننا لسوء التوفيق لا نجد في رواية الجزري الا سياق قسم منها فقط وخلوّ قسم آخر من تعيين الضريبة الموضوعة عليه كضرائب الخوخ والتفاح والكمثرى ولكن الجزري عوّضنا عن هذا الاغفال بذكر ما كان يستخرج من بعض الفواكه من الاشربة كالتفاح والسفرجل ومن الاعناب كالدبس وعدّ منه اربعة اصناف وكالملبن البعلبكي وحكى صفة عمله وكالزبيب. واضاف الى ذلك توسعاً مكس الثلج مع انه لم يكن من واردات الدار وقد حرصنا على نقل كل هذه العلاوات لفائدتها

ومن قابل بين اسماء الفواكه التي نقلها الجزري وما ورد منها في كتاب ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي التي استمدها من الجزء العشرين من تذكرة الصفدي وخصوصاً ما استوفاه منها البدري في « محاسن الشام » او ما جاء منها عرضاً في بعض الكتب الطبية ككتاب جامع الغرض ودفع المرض لابن

١) ذيل الروضتين لابي شامة خزانة باريس ٥٨٥٣ ص ١٣٠ والبداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني باريس ١٥١٦ ص ١٣١

الف الطبيب المسيحي الملكي من مخطوطات خزانة بريتيش موزيوم (رقم Or. 3690 الفصل ٤٣) يدرك كثرة ما اهمله الجزري من اصناف الفواكه الدمشقية الداخلة الى الدار في ايامه . قال بعد ما تقدم :

« اول شيء يدخل الى الدار من السنة الجديدة اللوز البعلبي والورد والتفاح السكري والفراصيا والفول الاخضر : يؤخذ من كل مية الدراهم درهم . هذه الاصناف عشرين الف درهم وسهما المليون خمسة آلاف درهم والنارنج خمسة آلاف درهم . ومن بعدهم المشمش ذكر اصنافه وكذلك جميع الفواكه حتى تكون الفواكه مكملة

المشمش

الاول السندياني . يتبعه الحموي . ويلحقه البلدي الكبار يكون الرطل ستين حبة ويتبعه الخراساني المائي الحالي الذي ليس في الدنيا مثله . « ويتبعهما الوزيري شبيه الخراساني الا ان قلبه مر . والكلابي اصناف كثيرة فيه صغار وكبار ومائي وناشف . وفيه صنف يسمى ضراط البخاتي سمت من جماعة من مشايخ دمشق ان بني الحسين بن علي رضي الله عنهما لما كانوا بدمشق عبر عليهم اطباق المشمش وهي مغطاة فسألوهم ما هذه فقالوا ضراط البخاتي . قالوا اطعمونا منها فاخذوا بعر الجمال عملوه في طبق وغطوه وجابوه لهم مغطى .

فائدة ان الله تعالى جعل المشمش الذي يسمى ضراط البخاتي والكلابي يباع كل عشرة ارطال بدرهم ويباع اكثره سلال كل سلة بربع درهم يكون زنتها رطل ونصف .

وفي آخر المشمش يجي مشمش صغار القدر صلب الحب وقلبه حلو وهو مائي الى حد غاية . ذكروا انه هو كان اصل المشمش البلدي والخراساني . وبعض السنين اذا كان اللوزي مقبل ما يباع الكلابي . يسطحونه على الارض بيبس فيصير منه قناطير يباع القنطار بعشرين درهم(١

ومكس المشمش الذي يباع بدار البطيخ غير المراكز خمسة وثلاثين الف درهم وما يأكلوه اصحاب البساتين والفلاحين وما جادوه لبعضهم بعضاً ويطعموه والمراكز يباع فيها جميع اصناف الفواكه طول النهار بخلاف دار البطيخ فانها من بكرة الى الثانية وتنفض . والمراكز فيها كتاب واحنا ومشدين ويحمل كل مركز ما اخذوه الى الديوان الكبير والضامن وهي مركز الصالحية . والعنبية . وحكر السماق . وزاوية الشيخ ثابت . وميدان الحصا . وباب الصغير اول الشاغور والباب شرقي (ص ٤٦٤) وباب توما . وعند المدرسة الزنجبيلية . ومسجد القصب والعنبية وغيره . وضريبة المراكز اربعين الف درهم . وزنار البلد ضريبته عشرين الف درهم

التوت

واما التوت فهو نظير المشمش وما عليه مكس ولا معارضة . وهو يستوي قبل المشمش

---

١) يستفاد من قوله : « يسطحون الكلابي على الارض فيبس » انهم لم يكونوا وقتئذ يتخذون منه القمرديين . ولم يذكر القمرديين في جملة واردات دار البطيخ او دار الطعم كما ذكر الزبيب والدبس والملبن . ولعل القمرديين من محدثات القرن التاسع للهجرة في الغالب .

عشرة ايام ويبقى بعده بنحو عشرة ايام . والصيف هو عبارة عن التوت والمشمش وباقي الفواكه عيلة عليها . ويشتري التوت على الغراضي اول باول . قلت وهو ثلاثة اصناف الاول يقال « الماصي كُلي ولا تماصي » . وهو ثلاثة الوان احمر واسود وابيض حلو طيب . ويتبعه بنحو عشرة ايام التوت السلطاني حلو كبار ومن كباره وطواله يصفّرن منه خمسة تجي شبر ابن آدم واما سبعة وثمانية فكثير يعدونه للامراء والاكابر . واكثر الناس يرجحونه على المشمش لان فيه حرارة لطيفة ما ترخي المدة ويستحل سريعاً ويقيم التوت خمسين يوماً والثالث التوت الشامي الاسود الذي يقوم مقام الشراب . .

ويتبعها :

الخوخ

الاسود . والخوخ الزجاجي الابيض . والشتوي وزن الخوخة الشتوية من اوقية الى عشرين درهم . والقبرصي دونه . والذي يطبخ باللحم عين البقر والدب ويسمى منها المزاوير (جمع مزورة) للمرضى

ويجي في زماضم :

التفاح

النبلي . والجراماني . والبديدي . والجناني طيب الطعم صغار والفضي يطبخ باللحم لحضه . والمجهول . والاحمر . والشتوي الذي يأكلوه في الشتا ويسافروا به الى البلاد وهو الحديثي ابيض مشطب بالحمرة . والفتحي الذي يعمل منه الشراب وخميرة التفاح ويوكل طول السنة . والربداني وغيره

وفي الصيف ايضاً :

التين

منه الرومي لا يشبه حلاوته شيء . والبرزي . والمنيني وغيره . وضريبته عشرين الف درهم

البطيخ الاصفر

ضريبته ثمانية وعشرين الف درهم

البطيخ الاخضر

ضريبته عشرين الف درهم تستخرج من اصحابها من الضياع من كل ضيعة بكم يعمت مقاثيها . كل تسعماية : درهم

الرمان

ضريبته في كل سنة عشرة آلاف درهم

ذكر اصنافه : المسار (المسائري ؟) بلا عجو . والملس (الليبي) وهو العجو . وشوكي (شويكي) وتدمري . وكوفي . ولفّان مثل الشراب بفرط ويخلط بالحلو ويوكل يغني عن الشراب . واما طبخه باللحم عجب من العجايب . والحامض للطبخ ومنه الحب رمان

السفرجل

ضريبته عشرة آلاف درهم . وهو صنفان : البرري الحلو . والآخر القصي الذي يطبخ باللحم . ومن خواص السفرجل اذا أكله المسهول على الريق عقل بطنه وملك اسهاله . قلت والسفرجل يعمل منه شرابين احدهما يقطع صفار (٤٦٥) وينشر باطنه وظاهره ويوضع في الدست ويوضع عليه الجلاب ويطبخ فاذا نضج واستوى يترك على حاله الى ثاني يوم يرخي مائته فيرفع على نار لينة الى ان حيث ينعقد عليه الجلاب يحط في البراني ويستعمل . والشراب الخام منه يقطع ويدق بقشره وبعصر ماه ويوضع مع الجلاب ويطبخ بنار لينة حتى يتعقد يقطع الاسهال ويعمل منه معجون يقطع ويدق ويطبخ بالملاف او السل او الدبس بنار لينة مثل الحلاوة فاذا استوى يوضع عليه الأنسون والطراف الطيب نافع لهضم الطعام واصلاح المعدة وغير ذلك . ولولا خوف الاطالة لذكرت في أكثر الفواكه خواص كثيرة ذكروها الحكماء.

الانجاص هو الكمثرى

اوله البلاني . ويتبعه السكري وهما لطاف الحبة . والمنتق كبار ولونه احمر . والثماني الصيفي هولاء سعرهم غالي : رطلين الى رطل ونصف بدرهم والحلاني قشره اخضر وباطنه ابيض وتلحقه حموضة واذا بات حلا وهو يخشن المعدة ويقطع الاسهال وسعره رخيص من ثلاثة ارطال الى اربعة ارطال بدرهم . واما خشبه فله قيمة جيدة يعملوا منه القطع الذي يحلجوا عليها القطن الجوب ويستخرجوا منه حبه وما في الاخشاب ما يقوم مقامه. والسقلاني قشره اسود وهو حلو كبار . والسمرقندي كبار اصفر واكثر الناس يعملوه في الحل ويضيفه الى المخللات . والملكي . والصيفي اصغر كبار . هذا جميعه صيفي . واما الشتوي الذي يعلق ويسافر به البلاد فهو يقال له الرحبي والثماني

وذكر ارض الدار ومكسها سبعة آلاف درهم وهو الخيار والقثا والقرع واللوبيا والترم والبصل والخشخاش والحمص الاخضر وغير ذلك والقنبيط مكسه خمسة عشر الف درهم والقلقاس مكسه (بياض) وهو صنفان البلدي والطرابلسي مثل المصري في طعمه وجودته

الدراقن

أسماه اللوزي الكبار. كل واحدة اوقية. وحبه حلو . والزهري احمر واصفر ورائحته طيبة تشد الفواد . والزبّق ما يوكل الا مفطم بالسكين ومنشر او يُنهش بالاسنان القوية. والمجهول كثير واصنافه كثيرة . منه المظفّري . ولحم الجل وغير ذلك . والجميع طيب ينفع الشاب ويضر بالشايخ

العنب

ذكر ان مكسه في السنة اربعين الف درهم . يؤخذ منه كل حمل درهم ونصف . كل فردة نصف وربع درهم . وزن كل فردة من خمسة واربعين رطلا الى خمسة وثلاثين رطلا .

وبيع كل فردة من عشرين درهم الى خمسين الدراهم . وبقية الحمل وجمه وحمله الى دار العنب ثلاث الدراهم ومكسه درهم ونصف . وقباني ومنادي : نصف يبقى الحمل خمس الدراهم . يحصل ثمن الحمل بعد الصروف من عشرين درهماً الى الاربعين

اصناف العنب واسماؤه كثيرة . فاول ما يقدم الى دمشق العنب الداراني لونه احمر يبقى جميع الاعناب بعشرة ايام . ثم يقيمه الاصابعي وبيض الحمام كبار ابيض . الزردي . ومخ العصفور . وقسيسي . وخناصري . وجوزاني . وعبيدي . والعبيدي هو الذي يلفوه في المخازن في الشتاء ويبيعوه زمان زهر اللوز والثمار . قلت والشيخاني . والبيتوني والعاصمي ياخذوا مكسه كل سبع دراهم درهم(١

ويباع العنب مدة ستة شهور كل يوم من ثلثماية حمل الى اربعماية وخمسين حمل . وبعض الايام يصل الى خمسماية حمل . هذا من غوطة دمشق . واما الجبلي فمكسه لدار الطعم مع الثلج في الستة سبعين الف درهم يضاف لدار الطعم خمسة وثلاثين الف درهم . والثلج بخمسة وثلاثين الف درهم

قلت وهذه ضمان الفواكه التي يستخرج مكسها مايتين الف درهم . ويبيعها كتاب وجامكيات ومشدين ووحالة وما يسرقوه ويخفوه اكثر من عشرين الف درهم . فيكون ثمن اليوع غير ما ياكلوه اصحاب الثمار وجادوه ويخفوه ويدخلوا به الى بيوتهم اكثر من ثلاث الف الف درهم . . .

تتمة اخبار الاعناب

(بخط غير خط الكتاب وهي بمعنى ما سبق وفيها زيادات قليلة)

(كالكلام على الدبس والزبيب والملبن والثلج)

اول ما يدخل الى دمشق العنب الداراني وهو احمر اللون مدوّر حلو شبه السكر يبقى دون شهر وحده . ثم يقيمه البزري ابيض اصابعي ومدور . ويتبعها بقية الاعناب خمسة ستة الوان . وامير العنب العاصمي . ويدخل الى دار العنب في كل يوم من ثلثماية حمل الى خمسماية حمل نحو شهرين . الحمل فردتين . وزن كل فردة خمسين رطل الى خمسة وثلاثين رطل . تباع كل فردة من عشرين درهم الى ثمانية وسبعة . يؤخذ من كل حمل درهم ونصف مكسه اربعين الف درهم . والعنب الذي يجي من الجبل هو لدار الطعم . مكسه في السنة

---

١) من الغريب جدا انه لم يذكر العنب الزيني . وهو غير الاصابعي . وغير البزري وغير العاصمي . وقد ذكره في عصره صلاح الدين الصفدي كما يؤخذ من تذكرته التي اشرنا اليها من نقل ابن حجة الحموي . وذكره « الزيني » بعده البدري في كتابه محاسن الشام (٢٢٣) وقد فات الجزري كثير من اصناف الفواكه الداخلة الى الدار فضرب عنها صفحا واهمل تعداد ضرائبها بوجه التفصيل والترتيب واضاع بعض فوائد روايته التي انفرد بمزيتها واهميتها . ولا نرى لما لـوه الحظ بديلا ولا تكملة في ما وقفنا عليه من الاثار الباقية

خمسة وثلاثين الف درهم . وهو ثلاثة الوان احمر كبار صلب . وابيض مدور يسمى قصيف حلو كبار . وبيض الحمام كقدر البيض ينبع الى ان تزهر الاشجار . يباع من رطلين الى رطل بدرهم وهو مليح جدا حلو طيب الى الغاية

الدبس

هو لدار الطعم . مكسه في السنة اربعين الف درهم . يؤخذ من كل قنطار سبعة ارطال . وحق الدار سبعة الدراهم . وهو اربعة اصناف . الاول الشديد الذي يعمل منه القطايف بقلب الجوز . والثاني اصفر يشبه العسل لبن . والثالث المرحل يشبه السكر المفتوت منه . والرابع السايل وهو صنفين . احدهما يزغلوه مع القطر النبات في عمل الكنافة والقطايف . والاخر يسمى منه جميع الحلاوات . يؤخذ عشرة ارطال دبس توضع في القدر وتعصر بياض البيض والنشا فتبقى ستة ارطال ويضاف اليها قلب جوزستة ارطال او دوخا بقليل او (٦٦٢) يقوم بوزنه ويعقد حلاوة جوزية . او منقوشة . او سُمسُمية . وتحط في الطيب ويسافروا جا الى اكثر البلاد ومصر وبغداد وغيرها

الذي يباع بدار الطعم ثمنه اكثر من مايتي الف درهم خارجاً عن كروم اهل البلد الذي في الجبل والامراء والاجناد

الزبيب

نحو خمسة الوان : الدربلي . والجوزاني . والاسود . والصفار بلا حب . وغير ذلك . ومكسه عشرين الف درهم . ويؤخذ منه مثل الدبس سبعة ارطال وسبعة دراهم .

الملبن البطيخي

مكسه عشرة الاف درهم . وصفة عمله : القنطار من ماء العنب اذا وضع في القدر وأوقد عليه يبقى ستين رطلاً . يضاف اليه ثمانية ارطال نشا ورطلين قلب جوز وفستق ولوز ويسافر به الى جميع البلاد

الثلج

يؤخذ منه للسلطان الربع . وينقص من اول النهار الى آخره الربع . مكسه في السنة خمسة وثلاثين الف درهم . وضامن وديوان وغيره خمسة الاف درهم نكملة اربعين الف درهم . يباع في الشتا . يوضع على الفقاع وما يشرب بالماء في الصيف ماية الف درهم وستين الف درهم (٦٨٦)

وكانت كل هذه الرسوم ثقيلة الوطأة على الرعية نكثرة من كان يقتات بها من العامة والفقراء ولذلك لما دخل السلطان نور الدين دمشق في العاشر من صفر ٥٤٩/١١٥٤ م رأى ان يتقرب من قلوب اهلها باسقاط مكس الدار في

جملة حقوق اخرى سلطانية[1] قال ابن القلانسي : ثم احضر بعد عد ذلك اليوم اماثل الرعية من الفقها، والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم... ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل والانهار وانشأ بذلك المنشور وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة .»[2] وزاد الصفدي « ابطال مكوس الكيالة وسوق الغنم وغير ذلك »[3]

ولكن ابطال هـذه الحقوق لم يتجاوز اربع سنوات اواخر رجب سنة ١١٥٨/٥٥٣ حتى قام قوم من سفها، العوام وحسنوا للسلطان نورالدين اعادة ما كان سامح به اهل دمشق من مكوس دار البطيخ وعرصة البقل والانهار وضمنوا له القيام بعشرة آلاف دينار عنها والحوا بذلك حتى أجيبوا . فلما شرعوا بفرضها على ارباب الاملاك والاعيان والرعايا ضج الناس واستغاثوا بالسلطان فامر باسقاطها ثانية وتعفية اثرها . واضاف الى ذلك فيما رواه ابن القلانسي ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن تبرعاً من نفسه[4]

على ان امد هذه المسامحة لم يكن طويلاً لشدة طمع الملوك والنواب في اموال الرعية وحرصهم على تتابع الجبايات والضرائب سدًّا لنفقاتهم الطائلة وربما اجتمع لهم منهـا على الاسواق والاملاك ما كانت ترزح تحت ثقله . فكانت الولاة لا ترى بدًّا من مدة الى اخرى من التخلي عن البواقي منهـا وابطال هذه المظالم باسرها . ولعل رسوم دار البطيخ كانت في جملة ما اسقطه الملك العادل سيف الدين بن ايوب منها في ما نقله ابو المظفر سبط ابن الجوزي[5].

---

١) في خزانة اسكوريال (Escorial) في جوار مدريد بين مخطوطاتها العربية مجموع نقل من اسم جامعه (رقم ٥٦٧) وفيه في الصفحات ٤٦ - ٤٨ نسخة توقيع كتب عن السلطان نور الدين بابطال المكوس في البلاد التي تولاها عُدّدت بلدًا بلدًا وفي مقدمتها دمشق كانت مكوسها السابقة في ازمنة مختلفة مئتي الف وعشرين الفًا وخمس مئة وثلثة وثمانين دينارًا . وكانت بتاريخ التوقيع خمسين الفًا وسبع مئة وثلثين دينارًا

٢) ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧ – ٣٢٤

٣) تحفة ذوي الالباب . خزانة باريس ٥٨٢٧ ص ١٤٠

٤) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٢ – ٣٥٣

٥) الوافي بالوفيات للصفدي . باريس ٥٨٦٠ ج ١ : ٤١

وفي سنة ١١٩٦/٥٩٢ « اسقط الملك العزيز المكوسي من سوق الرقيق وما هو مقرر من المكوس في سوق الدواب ودار البطيخ والملاهي »[1]

وجاء ابطال رسوم الدار ايضاً سنة ١٤٠٣/٨٠٦ على اختلاف في تاريخ الشهر ذكر المقريزي انه في ١٩ جمادى الاولى نودي فيه في دمشق بابطال مكس الفاكهة والخضراوات[2] . ونقل ابن قاضي شهبة انه في ربيع الاول. قال : « نودي فيه بابطال مكس الفاكهة والخضراوات بامر النائب . وكان يؤخذ على المقاتي وغيرها . وكتب في ذلك الى مصر ليجيء مرسوم السلطان بذلك . وذلك بعدما احتال واشهد على المقطعين من الاجناد انهم راضون بذلك . فجاء المرسوم على حسب مكاتبة النائب في ذلك وبطل واستمر »[3]

وفي ١١ صفر سنة ١١٥٢/٩٢٧ « نادى الغزالي جان بردي نائب الشام » بابطال المكوس وما يؤخذ على البضائع بالخان ودار البطيخ »[4]

وكان بدمشق داران للبطيخ اشار ابن شاكر الكتبي الى موقع الاولى منهما في كلامه على الكنيسة التي كانت بحضرة سوق الفاكهة وقال انها « كانت في دار البطيخ العتيقة »[5] وعيّن ابن عساكر مكانها عند قناة الثلّاج[6] وهي السبيل المعروف بحارة الثلاج قريباً . من كنيسة مريم . وفي جوارها كانت قبلًا سوق الفاكهة . وذكر ابن شداد في جملة المساجد القديمة « مسجداً عند رأس درب التيمي في سوق دار البطيخ[7] . وموقع هذا الدرب كان بقربة من درب الحبّالين ودرب الفرّاش اي غير بعيد من الحارة المشهورة ببستان القط عن يمين الشارع الذي فيه الكنيسة المرمّمة . ولما وسّع الطريق في تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ ظهر وراء سبيل الثلاج قنطرة رومانية قديمة ترى اليوم من بقايا

١) غاية الارب للنويري : جامعة ليدن Arab. 2ª Gol. fº 214

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك . باريس ١٧٢٧ ج ٢ : ٤١

٣) كتاب الذيل . باريس ١٥٩٩ ج ٢ : ٣١٣-٣١٤

٤) حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين لمحمد بن عيسى بن كنان خزانة برلين Wetzst II nº 117 fº 73 ٣٥

٥) عيون التواريخ ١٥٨٧ باريس ٩٣

٦) مختصر بدران ١ : ٢٤٨

٧) الثالث من كتاب الاخلاق الخطيرة . بريتش موزيوم Add. 23335 fº 43

دار البطيخ العتيقة . ولم يذكر احد المؤرخين الزمن الذي بطلت فيه هذه الدار

واما موقع الدار الثانية فكان تحت القلعة اشار اليها ياقوت في ما رواه من الاخبار القديمة عن شيوخ دمشق وقال ان دار شداد بن عاد « كانت في سوق التبن . . . وانه كان يزرع له الريحان والورد وغير ذلك فوق الاعمدة بين القنطرتين قنطرة دار بطيخ وقنطرة سوق التبن . وكانت يومئذ سقيفة فوق العمد »[1] . ولا يزال اسم سوق التبن معروفاً اليوم يدخل منه الى سوق خان الباشا اي الى سوق دار البطيخ . وقديماً زالت العمد والقنطرتان ولم يبق الا ساحة الدار وفيها الآن سوق الفاكهة حيث كانت قبلاً

ومن الاشارات ايضاً الى مكان دار البطيخ الثانية قول ابي شامة في كلامه على وفاة معين الدين أُنُر سنة ٥٤٤/١١٤٩ ان قبره « في قبته بمقابر العُوَينة شمالي دار البطيخ الآن »[2] . وقول ابن قاضي شهبة ان عمارة بهادر كانت سنة ٧٩٣/١٣٩١ « في سوق الغنم خلف دار البطيخ »[3]

وآخر ما ورد ذكر دار البطيخ في قول البدري من المتأخرين : ان « من محاسن الشام تحت قلعتها . . . وهي ساحة سماوية . . . تحفها الدور وتعلوها القصور . . . فيها دار البطيخ الذي (كذا) يباع فيه جميع فواكه البلد . وبه العين المشهورة المُجمِع[4] على برودة مائها وعذوبته وخفته »[5]

وممن ذكر دار البطيخ في القرن العاشر يوسف بن عبد الهادي في جزء له سماه كتاب الاعانات على معرفة الخانات قال : « دار البطيخ بها ثلاثة خانات الاول الشامي . والثاني عند باب المسجد قبلة . والثالث فوقه وبابه شامي . » وفي مكان هذه الخانات خان الباشا المشهور اليوم

ولم يتفق لنا العثور في كل مطالعاتنا على الزمن الذي بنيت فيه بالضبط دار البطيخ الثانية

---

١) معجم البلدان ٢ : ٥٨٩ وتصحف فيه اسم سوق التبن بسوق التين

٢) كتاب الروضتين ١ : ٦٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ٢٣٦

٣) كتاب الذيل ١٥٩٩ باريس ٢ : ٦٥ – ٦٦

٤) في المتن المطبوع « وبه العين المشهورة بالمجمع » وهذه الطبعة وافرة الاغلاط

٥) نزهة الانام في محاسن الشام ٦٢